

أول معركة في النقد العربي

بقلم نورالجندي

على الاستغراب والعجب ، وقد ودنا ان نحمل كلامه هذا على مقتضيات المودة ، وان كنا لا نجد لذلك وجها سديدا .
ولما كان ما أورده من الكلام لا يخلو من فطنة جاهل واهم أو من نقد عالم بصير ، رأيت من باب الوجوب ان اتصدى لاجابته ردا لاوهم الوافين عليه الى كنه الصواب والحقيقة .

وقد ذكر « صاحب الجوائب » في صدر كلامه مقدمات اشار بها الى مودة بينه وبين ابي رحمه الله ، كان منشأها الوطن والجيرة ، ثم استمرت بالمراسلات الحبية والمطارحات الادبية ، والامر كذلك فان ابي بعث اليه بقصيدة عزاه بها عن اشياء له مطلعها :
لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود فاليت للودود والمولود للودود
وقد اجابه عنها بما مطلعها :

ما في يوم وليل دهر تنكيد فما البقاء وان تحرص بمحمود
وقد اشار في اثناء كلامه غير ما ذكرت الى قصيدته ، يقول :
ان ابي اجابه باحداهما عن قصيدة له وبعث اليه بالآخرى .
ثم استدرك يذكر موجدة قديمة وعتب لعدم تصريحه باسمه في عنوان القصيدة التي عزاه بها في حين طبعها في ديوانه وقال : ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا ، اقول والعجب من هذا فان ما عنده من صفاء الحب قد اضمح له ما اضمح الى ما بعد وفاته . ولعل في ذلك سرا يدركه اولو الابواب ، ولا ادري ما ضره عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدح له وانما هي حكم وامثال يعزیه بها ، ومن الغريب ان امرا كهذا قد اثقل منكبي الامام واقلق وقاره حتى نشره في جريدة سيارة والقي به نفي العتاب في الاقطار واعمل الافكار في البحث عن سبب ذلك .

ثم استطرد الى ذكر كراب قال ان ابي بعثه اليه من الاستئانة (عن طبع مقاماته) ثم قال : وكان اول ما خطر ببالي من التعبير الذي نواه لفظة « الفحطل » المذكورة في المقامة الانطاكية الى آخره . . .
والظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيدا لما نواه سامحه الله ، وأعجب كيف لم يدرج هذا في جوابه له حينئذ ، وقد كان المقام أليق به من كل الوجوه ، وشهد الله اني منذ اليوم لم أكن اتوقع مثل ذلك من الصديق القديم اذ لم يقع بيننا ما يبعث عليه كما يقرر في كلامه ، ولا كان عندي انه ممن يحاول النضال عن فطنة الأفراد ، وقد كان ما في نفسه ممكنا على وجه أليق وأجمل به .
اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء فيها مقدمة على الطاء في الواقع والحق العكس وان يقال « الفطحل » بتقديم الطاء .

(ثم أورد احكاما نحوية كثيرة) .

والشيء بالشيء يذكر ، فما مر الكلام عليه من الخلل في الاحكام الفاصلة هو على حد قوله في كتابه سر الليال . . . « ولكنهم عدلوا عن هذه الجادة الى جادة اخرى جاهدة » ومثله قوله بعد ذلك « فظهرت أسارير حسننها وتباشير فنها وحكمة وضعها وبهجة مطلعها ، فان الجادة لا توافق جاهدة ووضعها لا توافق مطلعها وانما تكون الجادة بازاء النادرة مثلا وجاهدة بازاء شاردة وهلم جرا . . . » ومن ذلك قوله . . . ومن ذلك قوله الخ . . .

يمكن ان تعد المعركة الادبية بين البيهقي والشديقي التي وقعت عام ١٨٧١ أول معركة ادبية في الادب العربي المعاصر ، فما نعلم ان هناك معركة سبقت هذه المعركة ، وكنا قد اصدرنا مجلدا كاملا عن المعارك الادبية ضمن موسوعة معالم الادب العربي المعاصر تناولنا فيها اكثر من ستين معركة وكان اقدمها معركة رسالة منصور فهمي عام ١٩١٤ عن حالة المرأة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها . . .

اما قبل هذا التاريخ فقد اشرت اليه اجمالا حين ذكرت ان هناك معركتين اولاهما بين ابراهيم البيهقي وفارس الشديقي ، ومعركة كتاب تحرير المرأة لفاطم امين عام ١٨٩٨ ولما كانت الاخرة معركة اجتماعية في الاعلب حيث تدور حول مفاهيم السفور والحجاب وتعليم المرأة ، فقد رأينا ان نستعرض معركة البيهقي والشديقي باعتبارها معركة ادبية دارت حول اللفظة أصلا .

وكان أحمد فارس الشديقي قد رثى المرحوم ناصيف البيهقي في مجلة الجوائب (العدد ٥١٩ - عام ١٨٧١) بقصيدة من الشعر « صدرها بكلام طويل اشار به الى مودة قديمة بينهما أوجب عليه رثاءه ، متمنيا له طول البقاء » ثم اشار السى ان مرجع ذلك الوطن والجيرة وان الرسائل الحبيبة قد استمرت بينهما كما استمرت المطارحات الادبية ، ثم اشار الى انه كان قد وجه اليه قصيدة شعرية فلما طبعها في ديوانه رفع اهداها ثم اشار الى انه كتب له في أحد خطاباته عبارة (الفحطل) وعاب عليه هذا الخطأ وقال ان وجه الانتقاد فيها ان الحاء فيها مقدمة على الطاء والعكس هو الصحيح وان يقال الفطحل بتقديم الطاء .

وهذه عبارة الشديقي في الجوائب ، ٢ ماي (ايار) ١٨٧١ :

« قد كان بيني وبين الشيخ ناصيف البيهقي مودة قديمة لانا كنا جيرانا في ساحل بيروت فكان مقره في كفرشما ومقرى في حارة الحدوت ولما كنت في مالطه جرت بيننا مراسلات ادبية فارسل الي قصيدة من الجنس العاطل . وكان قد ارسل الي قصيدة « لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود » ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا ، ثم ارسل الي كتابا ذكر فيه انه بلغه ان احد سكان الاستانة يريد ان يطبع مقاماته ولا يكون ذلك على وفق رضاه فان في نيته زيـسادة شيء عليها وتغيير شيء منها تأجيبه بانني استقصيت عن هذه القصيدة فلم أقف لها على اثر فاذا علمت شيئا بعد ذلك أنهيته اليه ، وكان أول ما خطر ببالي من التعبير الذي نواه لفظة الفحطل المذكورة في المقامة الانطاكية ثم قال في تفسيرها هو زمن قيل ان يخلق الناس ويمكن ان يكون المراد به زمن الطوفان لان الفحطل هو المطر الشديد ، وهو وهم فان حق اللفظة القديمة الطاء على الحاء قال في القاموس الفحطل (كهزير) وهو لم يخالف فيه الناس بعد . ولا شك ان قول الشيخ ناصيف في المتن والشرح فحطل بتقديم الحاء على الطاء هو من غلط الوهم الذي يفتقر للشاعر . . . »

وقد رد « ابراهيم البيهقي » على « فارس الشديقي » مدافعا عن والده في مجلة (الجنان - ١٥ حزيران ١٨٧١)
قال مشيرا الى قصيدة الشديقي وما صدره بها ثم قال :
غير انا وجدنا في اثناء كلامه من الانتقاد عليه رحمه الله ما حملنا

فهل ذلك الا من العمى او التعامي . أما قوله الظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيدا لما نواه ، فالجواب انسي لم أنو طنا في مقامات أبيه ، ولو كان في قصدي ذلك لم اقتصر على لفظة الفحطل وانما خصصتها بالذكر لقرابنتها .

أما قوله انها من غلط الطبع فيكذبه ورود المطل بعدها فتأمل... ثم عرض للاخطاء التي اوردها عن كتابه سر الليال فرد عليها ثم قال : « ولا عجب فان هذا المتيلع يقول مثل الكلام فانه غر لم يمارس اللفه وانما العجب من كاتب الجنان ان يشتره عنه مع كونه حشر نفسه في عداد المؤلفين في هذه اللفه الشريفه ، وما ذلك الا لان كلام اليازجي اصاب منه موضع جرب فحكه » .
(وعاد مرة اخرى الى الهجاء) :
واذا كان هذا المفترض يدعي ان اباه كان معصوما من الفلظ فتلك بدعة شؤمي .

ثم قال : « فمن كان رأس ماله في العربية هذا المقدار فليستك ، والا فليستمن بصاحب الجنان على تنقيح كلامه فاما تعقيد كلامه واضطراب عبارته واسهابه في غير موضع الاسهاب فنكله الى من له ذوق سليم وطبع مستقيم » ا.هـ .

٤ - رد ابراهيم اليازجي على أحمد أفندي فارس الشدياق :
علم (١) الاكثرون ما وقع بيني وبين الشدياق .. فكاننا أوغر ذلك صدره وكبر عليه أمر تخطئي له فيما اعترض به ونبهني له بعض ما رأيته من الخطا في كتابه « سر الليال » مما أوردته في ردي المشار اليه فاخذ في الوعيد والتنديد مرة اخرى حتى ورد منه الجواب في العدد ٥٢٨ من صحيفته المذكورة ، واذا به قد عدل الى المساهمة والمهارة وخرج بما لا يليق ذكره . فعجبت أول ما عجبت من ارتكابه

(١) الجنان - ٢ تشرين ١٨٧١ - ج ٢١

قريباً

تورة الفقراء

بقلم

رجاء النقاش

دراسة عميقة واعية للشورة الجزائرية العظيمة

وانجازاتها الضخمة .

منشورات دار الاداب

(حتى اورد خمسا او ست اعتراضات عليه) .

ثم قال : وهنا أمسك عنان القلم اكتفاء بما ذكر عما لم يذكر ، على انني ما علقته ما علقته من غير اختيار مني كما أشرت فيما سبق ولكن قد جرى القلم ولعلي في جانب القدر .

كما انني في ما تداركت على سر الليال لم أتجاوز الصفحة الواحدة ...

ومضى يقول : ولا بد من ملاحظة ما ذكره صاحب الجواب مرارا في اثناء انتقاده من الاعتذار عن أبي رحمه الله في ما احتسبه خطأ منه ، وكأني به وراء ذلك يقصد بسط العذر لنفسه ايضا في وجهه ربما خيل له الواقع ان الذمم عنده تموت بموت اصحابها والعياذ بالله . وذلك مما تباها أخلاقه ولا يرضى به من تحلى بشعائر الكرم والشهادة ، فانه قد حفظ له ذلك العهد زمنا ينيف عن ستين سنة وبينهما مسافة من الارض . فمن اصعب ما يخال التسليم بأنه قد تنازل الى نكتة معه حين اصبح ولا مطالب به الا امانته وذمته ..

٢ - رد الجواب على ابراهيم اليازجي

« لا يخفى أن سيدي الوالد (فارس الشدياق) وكان قد رثي المرحوم الشيخ ناصيف بقصيدة بليغة في عدد ٥١٩ من الجواب وصدورها بمقدمة أشار فيها الى ما كان بينهما من المكاتبة والودة التي اقتضت ان يرثيه ثم لم يمض علينا ايام الا وقد طالعنا جرنال اللجنة صورة رسالة ارسلها الخوaja ابراهيم لتطبع فيه يقول فيها ان ما صدر من محرر الجواب مردود من وجوه شتى (وكانه عنى بردها في رأيه اما في الواقع فهي ثابتة)

وذكر انه علق عليها رداً قياما بما عليه من الحقوق نحو والده اقول فلما ان علم الخوaja الموما اليه حقوقا لوالده توجب قيامه في رد ما لا يرد عنه فكذلك لوالدي علي حقوق تقتضي ان انتدب لذكر ملاحظة نيابة عنه في مدة غيابيه وسيظهر الحق الحكم النصف فاقول ان ما ذكره سيدي الوالد فيما يتعلق بالمكاتبة التي وقعت بينهما امر ثابت لا يمكن نكرانه لوجود الرسائل التي وردت من الشيخ ناصيف المذكور الى سيدي الوالد . ان الرد الذي طبعه في الجنان كلام لا يصدر ممن له تمكن في الادب بل كله حشو وتخييلات (يقصد ما ذكره عن سر الليال) وانما صار يتكلم بما لا يجدي حين اخذه الغضب ، فعوضا عن ان يسير القلم بما اراد سار به القلم بالتضاد » .

٣ - ثم كتب فارس الشدياق في الجواب (٣٠ اغسطس - آب

١٨٧١) يقول :

لا يخفى ان الخوaja ابراهيم اليازجي كان قد كتب في صحيفة « الجنان » مقالة خطاني بها فيما أوردته على لفظة « الفحطل » و « المراض » ثم انتقل منها الى تخطئة بعض الفاظ وردت في مقدمة « سر الليال » وأطال لسانه بالتهكم والتنديد مكافاة لي على كوني رثيت أباه ، وحيث كان وصول مقالته الي وأنا أطوف في البلاد لتبديل الهواء ، وكان اعتنائي بصحتي اذ ذلك أوجب علي من معارضة السفهاء ، فلم يهمني الرد عليه وتخطئته فيما خطاني به ، ولا سيما ان تخطئته كانت ظاهرة في عين كلامه ، لانه مبني على المغالطة والتمويه ، وهو صفة كثير من امثاله الذين زببوا من قبل ان يحصرموا فاذا قالوا شيئاً فانما يقصدون به اعجاب جيرانهم ومعارفهم من الاغبياء المسفسفين لا ارضاء العلماء ، الا اني لما استقر بي المقام بالاستانة ، رأيت الجواب على سفسطة المذكور أولى من السكوت لكي يعلم الناس اني لم ازل مراعيًا لحقوقي العربية التي تقضي علي بان أردع كل سفيه عنها ، فاقول ان قوله (ولا ادري ما ضره عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدح له وانما هي حكم وامثال يعزبه بها محض مواربة فان أباه صرح بمدحي) .

هذه الخطة المتكررة لاننا كنا في اول الامر قد دخلنا من باب المناظرة الادبية ولم تكن في شيء من قصد المهاجة والمشاتمة . ولا كان عندي انه اذا دعت الحال لمثل هذا ننتسازل الى المواظة عليه ويرضى به لنكسه .

ولقد كنت احسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من اخلاقه ويمكن عنده اسباب الحلم والدمائة والصبر على المكروه اكثر مما رأى من نفسه هذه المرة ، فاذا دمه لم يزل على حرارته المهودة ايام كانت تلك النار تقري بفحم الشباب فكأنما كان تلج المشيب ادعى الى المبالغة في ايقادها ، فما زاد على ان اثار شواظها فاذا هو هي . وقد علمت انني لم اكن مبادئا له في هذه المناقشة ولا سبق بيني وبينه عهد في أمر من الامور وانما كان هو المتجني المعتدي ولا سيما انه لم يأبى المرحوم وخطاه عيئا ، فلم يكن يسعني والحالة هذه الا رده وفاء بحق من انا مندوب في كل شرع ان أدرا عنه كل عابث يحقه ، وبالتالي اظهارا للحقيقة التي لا احسب اني اكون معذورا اذا سكت عن ابرازها مع معرفتي لها وعدم تمكني عن الاغضاء عنها كما لا يخفى .

وكنت اود لو استمرت هذه المناقشة مجردة الى البحث في المسائل الادبية والحقائق العلمية ، دون ما يسمع كل يوم من غلمان الازقة وسفهاء الناس واجلافهم السفلة . ولو كان في ذلك فضل لكان الفضل لمثل هؤلاء لان فيهم من له اليد الطولى في هذا الباب ، ولعمري هذا ما طالما اشرت اليه في ردي السابق وعرضت في غير موضع بحب اجتناب هذا الرجل حذر انبعاثه علي بملئه سامحه الله ، على انه لو شاء ان يقابلني بأخس منه لكان أقدر عليه وكان أجمل به . وما اخاله يجهل ان من يبدل نفسه في مجال كهذا انما يتعرض لان يشرب بالكأس التي سقاني بها فهل يسوغ عنده ذلك ...

ولئن ساغ عنده ما فعلت أبدا وأبى الله ان اجري الا على ما أدبت عليه من الرزاة والنزاهة . ولعمري ما كنت لاقترح موقفا كهذا اكون

فيه عرضة للمامة الحليم وهزه السفية ، وبناء على ذلك كان الاولى ان اقتصر عن الاجابة ، لان المناظرة من شرطها التكافؤ بين الجانبين ولا تكافؤيينا لرجحانه علي بهذا المعنى ، ولكن لثلا يتوهم بي ظنة القصور لم أجد بدا من ان اجيبه هذه المرة مقتصرًا على ما نحن في شأنه او ما هو من شأننا وأخلصه ردا علميا كما يليق بالاديب المهذب او بالحري بالشيخ الكامل .

(وبعد ان كتب اليازجي ٣٠ صفحة نشرت في ثلاثة اعداد خلال شهري تشرين وكانون اول ١٨٧١) ختمها بقوله :

وهنا لا بد ان اقول ان هذه المناقشة كلها لم تكن مني عن رغبة ورضى ولا أنا ممن يتهاختون الى التخطة والانتقاد لغرض ما ، وكان بودي استئصال هذا العرق من بيننا ، لو وافقتي عليه ، والمحافظة على عهد مع ابي رحمه الله وكرامته فوق ذلك بالنظر الى سنه فضلا عن عدم التعرض له بما يكرهه ولكن قدر فكان والفضل للمتقدم .

ثم قال : « وشهد الله اني ما كنت لأكره الخوض في هذه المطارحات والمباحث الدقيقة فانها لا تخلو من فائدة لي لو انه حافظ على شأني وشأنه ولم يتجاوز الى امر الهجاء فاني شديد الكراهية له . اما الان فقد بينت للواقف على هذه المناقشة مبلغ ما عنده من العلم فلا يلزمني بعدها مساجلته ومناظرته والتعرض لسهام قذفه ، لان آدابي ليست كآدابه ، وأطواري ليست كأطواره ، ولا رأيي لي في مواطناته على ما ذهب اليه ومعاذ الله ، فذلك باب من قبلي محكم التوصيد .

ليست الوقيع من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندى » .

أنور الجندي

القاهرة

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

والحلقة الثانية

الحلقة الاولى

قَصِيرُ كَامُو

قَصِيرُ سَارْتَر

في كتاب واحد يضم : الغريب - الزوجة الخائنة - الجاحد - اليكم - الضيف - جونس - الحجر الذي ينبت

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ابروسترات - صميمية - صداقة عجيبة

ترجمة

عايدة مطرجي إدريس

تفردا عن لفريضة

الدكتور سميل إدريس

الثلث ٤ ليرات لبنانية

الثلث ٣٥٠ ق.ل

منشورات دار الآداب